

أصناف المشكل من القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية

الدكتور: عبد العزيز ثابت

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة

ملخص المقال :

تندرج هذه الدراسة ضمن الدراسات القرآنية الأصيلة التي تهتم بموضوع من مواضع علوم القرآن ألا وهو : — المشكل من القرآن الكريم — ، وهي تهدف إلى بيان عناية العلماء بهذا النوع من العلوم الخادمة للقرآن الكريم ، فجاءت هذه الدراسة لتسهم في تأصيل هذا العلم ، وذلك بمعالجة كتاب من الكتب المصنفة في هذا الفن ، وهو كتاب : «تفسير آيات أشكلت» ، للإمام ابن تيمية — رحمه الله — ، وذلك بالتعرض لمنهجه في تناول علم المشكل من القرآن ، وبيان أصنافه عنده ، وطريقة دفعه له ، وفي هذا خدمة للقرآن الكريم وعلومه .

This study falls within the quranic studies that are interested in the origins of interpretation and its rules, so the problematic of Qur'an is considered one of the necessary sciences for the interpreter; because knowing the reasons of the problematic, its types , the ways to avoid it and the most important books that are written about it is very crucial in the process of interpreting since it helps the interpreter remove lots of problems he faces while interpreting, and this subject treats one of the books that talk about the problematic, this latter belongs to a very well known Imam of interpretation Sheik- al-Islam IbnTaymia –may Allah rest his soul- it treats the book by talking about the types and kinds of problematic in it and clarifies them to simplify it for the students in the field of interpreting.

إنّ معرفة المشكل من القرآن أمر ضروري للمفسر فهو من الأهمية بمكان ، فهو يعدّ من أصول التفسير الواجب معرفتها والإلمام بها ، فقد يقع للعامة والمبتدئين ما يوهم تناقضا وتعارضاً بين آيات القرآن فضلا عن خواصهم من العلماء وطلبة العلم ، فلذا احتيج إلى إزالة هذه الإشكالات، كما أنّ بعض الاشكالات تأتي عن طريق شبهات يثيرها خصوم الإسلام حول القرآن الكريم، فمنذ نزوله وهم يتعرضون إليه بإثارة بعض الشبهات قصد التشويه وتشكيك الضعاف من الناس فيه ، ولكن هيهات وأنّى ذلك فهو كلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ومن ثمتّ كانت معرفة المشكل، وأسباب وقوعه ، وأنواعه ، وطرق دفعه ودرئه ضرورية حتّى يسهل على المسلمين تدبر معاني القرآن الكريم ، وتطمئنّ قلوبهم اتّجاه القرآن ، فجاء هذا البحث ليسهم في دراسة علم المشكل ، وذلك بالتعرض إلى جهود عالم من العلماء الذين صنفوا في هذا الفنّ ودفعوا كثيرا من الاشكالات عن كتاب الله ، هذا العالم هو شيخ الاسلام ابن تيمية فقد وضع كتابا أسماه «تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء حتّى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير فيها القول الصواب ، بل لا يوجد إلّا ما هو خطأ» فأحببت دراسة هذا الكتاب بغرض بيان أصناف المشكل عنده ، ودراسة كهذه تتطلب الاجابة عن ماهية مشكل القرآن ؟ وتاريخ نشأة هذا الاستشكال ؟ ، وأهم المصنفات فيه ؟ وما هي أصناف المشكل عند هذا الشيخ ؟ هذه جملة من التساؤلات يسعى للإجابة عنها من خلال الخطة الآتية.

المبحث الأول : تعريف مشكل القرآن لغة واصطلاحاً ، ويتضمن مطلبين :

المطلب الأول : تعريف المشكل لغة :

المطلب الثاني : تعريف المشكل اصطلاحاً :

المبحث الثاني : نشأة الاستشكال في القرآن الكريم ، وأهمّ المصنفات في هذا العلم ، ويندرج تحته مطلبين :

المطلب الأول : نشأة الاستشكال في القرآن الكريم

المطلب الثاني : أهمّ المصنفات في علم المشكل

المبحث الثالث : التعريف بكتاب الإمام ابن تيمية تفسير «آيات أشكلت» ، وبيان أصناف المشكل فيه ، ويندرج تحته مطلبين :

المطلب الأول : التعريف بكتاب الإمام ابن تيمية « تفسير آيات أشكلت »

المطلب الثاني : بيان أصناف المشكل في الكتاب .

المبحث الأول : تعريف مشكل القرآن لغة واصطلاحاً

المطلب الأول : المشكل في اللغة

قال ابن دريد : الشكل المثل والشبه بفتح الشين ، هذا شكل هذا أي مثله ، وهذا من شكل هذا أي من جنسه وفي التنزيل « وآخر من شكله أزواج »¹ « وأشكل الأمر يشكل إشكالاً إذا التبس ... »² ، وقال ابن منظور : « وأشكل الأمر التبس ، وأمور أشكال ملتبسة ، وبينهم أشكَلَةٌ أي لبس ، وفي حديث علي عليه السلام : « وألاً يبيع من أولاد نخل هذه القرى ودية حتى تشكِلَ غراسا ، أي حتى يكثر غراس النخل فيها فيراها الناظر على غير الصفة التي عرفها فيشكل عليه أمرها ... »³

من خلال ما نقلته من معاجم وقواميس اللغة اتضح أنّ المادة اللغوية والمعجمية لمصطلح المشكل تدور وتصب حول معنى واحد وهو الالتباس والغموض والخفاء .

المطلب الثاني : تعريف المشكل اصطلاحاً :

عرّفه الجرجاني بقوله : « المشكل هو ما لا ينال المراد منه إلا بتأمل بعد الطلب وهو الداخل في أشكاله أي في أمثاله وأشباهه مأخوذ من قولهم أشكل أي صار ذا شكل كما يقال أحرم إذا دخل في الحرم »⁴ وعرّفه المناوي بقوله : « وشرح المشكل بسطه وإظهار ما خفي من معناه »⁵

وهذا التعريف الاصطلاحي هو بمعنى عام للفظ مشكل ، وأمّا تعريف المشكل باعتباره مركباً إضافياً للقرآن أو علماً ولقبا على القرآن والتفسير ، فإنّه يتطلب منّا البحث عن تعريف وضعه الأوائل الذين اعتنوا بهذا النوع من علوم القرآن وأصول التفسير ، وقد تعرض لبيان هذا المعنى العلامة ابن

¹ - سورة ص : الآية 58

² - انظر : جمهرة اللغة ، ط 1 ، تحقيق رمزي منير بعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1987 ، ج 2 ، ص 877 . (باب الشين والكاف مع ما بعدها من الحروف) - كلمة شكل -

³ - انظر : لسان العرب ، د ط ، بيروت ، دار المعارف ، دت ، ج 4 ، ص 2310 .

⁴ - انظر : التعريفات ، ط 3 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1408 هـ - 1988 م ، ص 215 .

⁵ - انظر : التوقيف على مهمات التعريف ، ط 1 ، القاهرة ، عالم الكتب ، 1410 هـ - 1990 م ، ص 203 .

قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن الذي يعتبر أول ما وصل إلينا من المصنفات التي اعتنت بهذا العلم حيثقال:«... ومثل المتشابه المشكل ، وسمي مشكلا لأنه أشكل أي دخل في شكل غيره فأشبهه و شاكله، ثم يقال لما غمض وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة مشكل...»⁶

ومن العلماء الذين أطلقوا لفظ المتشابه وعنوا به المشكل الإمام أبو جعفر بن الزبير الغرناطي حيث صرح بذلك في مقدمة كتابه المانع ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل فقال بعد ذكره لأول من صنف في توجيه المتشابه وحديثه عن الإمام الخطيب الإسكافي «... ومستدركا ما تذكرته مما أغفله رحمه الله من أمثاله من المتشابهات برفع تلك الإشكالات»⁷ وقال بعدها: «وقد استجرت تلك الآيات جملة وافرة من المفقلات من أمثال تلك المشكلات ، مما يجاري ويشبه ويلتبس على من قصر في النظر ويشتبه»⁸ ففي نص كلامه هذا دليل على إطلاق المتشابه على المشكل وأتھما مصطلحان مترادفان يؤديان معنى واحد .

المبحث الثاني : نشأة الاستشكال في القرآن الكريم وأهم المصنفات فيه

المطلب الأول : نشأة الاستشكال في القرآن الكريم

إذا كان المشكل هو خفاء المعنى المراد من اللفظ أو الآية القرآنية، فإنّ هذا يدعونا للبحث عن تاريخ ظهور هذا الاستشكالوبداية منشأه، فهل استشكل الصدر والرعيّل الأول من الصحابة والتابعين بعض الآيات من كتاب الله تعالى؟، لأنّ عسر إدراك بعض معاني الآيات عنهم يعدّ أمرا غريبا ومستبعدا ، وذلك لما اختصوا به من شرف الصحبة التي اقتضت معاينة تنزلات الوحي ومناسباته ، فضلا عن سلامة ألسنتهم من دخل اللكنة الأعجمية ، إذ كانوا عربا أقحاحا وفصحاء خلص ، فهم أهل اللسان العربي الذي لم يدخله الدخيل الأعجمي.

⁶ - انظر: تأويل مشكل القرآن، ط 3 ، السعودية ، المكتبة العلمية ، 1401 هـ - 1981 م ، ص 102.

⁷ - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل ، ط 1 ، تحقيق سعيد الفلاح ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1403 هـ - 1983 م ، ج 1 ، ص 146 - 147.

⁸ - المصدر نفسه : ج 1 ، ص 147.

والحق أنّ نصوص السنة ظافرة ببعض الاستشكالات التي وقعت لهم في بعض الآي من القرآن ورفعوها للنبي صلى الله عليه وسلم كي يزيل عنهم هذا اللبس ، من ذلك استشكال عبد الله بن مسعود لقول الله تعالى : «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم»⁹ قال ابن مسعود لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّه ليس بذاك ألا تسمعون لقول لقمان لابنه « إنّ الشرك لظلم عظيم»¹⁰ ، وكذلك استشكال عدي ابن حاتم لقول الله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود إلى الفجر »¹¹ فسأل النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً : يا رسول الله : ما الخيط الأبيض ، من الخيط الأسود أهما الخيطان ، قال : « إنك لعريض القفا ، إن أبصرت الخيطين » ، ثم قال : « لا بل هو سواد الليل ، وبياض النهار»¹² ، ثمّ في عصر التابعين استشكل بعض الأعلام من سادتهم بعضاً من آي القرآن وخفي عنهم مرادها ، فاستفتوا في ذلك من توافر عندهم من أعلام الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن أمثلة ذلك ما أخرجه البخاري عن سعيد بن جبير « أنّ رجلاً قال لابن عباس إنّني أجد في القرآن أشياء تختلف علي قال: فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، ولا يكتمون الله حديثاً، والله ربنا ما كنا مشركين، فقد كتموا في هذه الآية وقال أم السماء بناها إلى قوله تعالى : دحاها ، فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثمّ قال: «أنتكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين» إلى قوله : طائعين فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء ؟ وقال : « وكان الله غفوراً رحيماً » ، «عزیزاً حكيماً» ، «سميعاً بصيراً» فكأنه كان ثمّ مضى ؟ فقال : «فلا أنساب

⁹ - سورة الأنعام : الآية 82

¹⁰ - انظر: صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري ، ط 3 ، تحقيق ديب البغا ، بيروت ، دار ابن كثير ، 1407 . 1987 م ، كتاب تفسير القرآن ، سورة الأنعام ، باب قوله تعالى -الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم- رقم 4353 ، ج 4 ، ص 1691 ، عن عبد الله بن مسعود .

¹¹ - سورة البقرة : الآية 187 .

¹² أخرجه البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، سورة البقرة - باب قوله : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود» ، رقم : 4249 ، ج 4 ، ص 1640 ، عن عدي بن حاتم

بينهم» : في النفخة الأولى ، ثم ينفخ في الصور : فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الآخرة ، أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما قوله : «ما كنا مشركين ، ولا يكتُمون الله حديثا» ، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، وقال المشركون : تعالوا نقول لم نكن مشركين ، فحتم على أفواههم ، فتنطق أيديهم ، فعند ذلك عرف أن الله لا يكتُم حديثا ، وعنده : يود الذين كفروا الآية ، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ، ثم دحا الأرض ، ودحوها : أن أخرج منها الماء والمرعى ، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين ، فذلك قوله : دحاها . وقوله : «خلق الأرض في يومين» . فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام ، وخلق السموات في يومين ، «وكان الله غفورا رحيفا» سمى نفسه ذلك ، وذلك قوله ، أي لم يزل كذلك ، فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذي أراد ، فلا يختلف عليك القرآن ، فإن كلا من عند الله «¹³» .

فهذه الأمثلة تؤكد استشاكل الصحابة والتابعين لبعض آي القرآن الكريم ، ومن ثم توجه الصحابة بسؤال النبي صلى الله عليه وسلم ، والتابعون بسؤال خيار الصحابة عن معاني هذه الآيات ، والملاحظ على استشاكلات الصحابة أنها كانت في بيان ما يندرج تحت اللفظ العام أو تخصيص العام كما في حديث ابن مسعود الذي أورد فيه استشاكل الصحابة لمعنى الظلم في قوله تعالى : «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» فخصص صلى الله عليه وسلم هذا الظلم العام بالشرك الذي دل عليه قول الله جلّ وعلا : «يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» كما أنها جاءت في بيان بعض معاني الألفاظ ومدلول العبارات كما في سؤال عدي بن حاتم عن معنى الخيط الأبيض والأسود حتى أزال عنه هذا الإشكال بيانه صلى الله عليه وسلم بأن المراد به سواد الليل وبياض النهار ، وكذلك استشاكلات التابعين لبعض آيات القرآن الكريم فإنها لا تعدو أن تكون من هذا القبيل والله أعلم .

¹³ - انظر: كتاب تفسير القرآن ، سورة فصلت ، باب تفسير سورة حم السجدة ، رقم 4537 ، ج 4 ، 1814

، عن سعيد بن جبیر .

المطلب الثاني : أهم المصنفات في علم المشكل

يرى البعض من الباحثين أنّ الدافع حول التصنيف في هذا العلم من علوم القرآن كان في مبدأه أمراً لازماً فرضه طعون بعض الملحدّين والزنادقة في القرآن الكريم¹⁴ ، فانبرى لهم جماعة من اللغويين والمشتغلين بالتفسير للرد عليهم ، مبطلين دعاويهم ، ومنزهين القرآن الكريم عمّا ألصق به من شبه ، ومن أوائل المصنّفين فيه مقاتل بن سليمان (ت 150 هـ) فقد وضع كتاباً في متشابه القرآن تعرض فيه لبعض مااستشكله الزنادقة ، وقد نقل منه بعض الأئمة كالإمام أبي الحسين محمد بن أحمد الملقب الشافعي (ت 377 هـ) فذكر في كتابه التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع بعض أقوال الإمام مقاتل بن سليمان في توجيه بعض الآيات التي ادّعى فيها الزنادقة التعارض والتناقض¹⁵ ، ومن المصنّفين فيه كذلك :

– الإمام محمد بن المستنير المعروف بقطرب (ت 206 هـ) في كتابه (الرد على الملحدّين في متشابه القرآن) ، وقد ذكره ابن النديم في بيانه للكتب المؤلفة في معاني شتى من القرآن بقوله : « كتاب قطرب فيما سأل عنه الملحدون من آي القرآن »¹⁶

– الإمام أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) ، وقد تكلم الإمام ابن قتيبة في مقدمة كتابه عن دواعي تأليفه فقال : « وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بأفهام كليلة ، وأبصار عليلة ، ونظر مدخول ، فحزّفوا الكلم عن مواضعه وعدّلوه عن سبله ، ثمّ قضوا عليه بالتناقض ، والاستحالة واللحن ، وأدلّوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر ، والحديث الغر ، واعتزّضت بالشبه في القلوب ، وقدحت بالشكوك في الصدور »¹⁷ ، وبعد إسهابه في وصف هؤلاء ذكر غرضه من

¹⁴ – انظر: أنواع التصانيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم ، مساعد الطيار ، ط 2 ، السعودية ، دار ابن الجوزي ، 1423 هـ ، ص 98 .

¹⁵ – انظر: الرد على أهل الأهواء والبدع ، تحقيق يمان الميادي ، ص 70 .

¹⁶ – انظر: الفهرست ، محمد بن إسحاق أبو الفرج بن النديم ، ط ، بيروت ، دار المعرفة ، ج 1 ، ص 57 .

¹⁷ – انظر: تأويل مشكل القرآن ، ص 22 .

وضع الكتاب وهو ما أملته الضرورة في الرد على هؤلاء فقال: « فأحببت أن أنضح عن كتاب الله ، وأرمي من ورائه بالحجج النيرة ، والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يلبسون ، فألفت هذا الكتاب ، جامعا لتأويل مشكل القرآن مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والايضاح... »¹⁸ .

فمن كلامه يتضح أنّ المقصد الأعظم من وضع هذا الكتاب هو تتبع عورا الطاعنين من الملحدّين في القرآن بدحض شبههم التي ألصقوها بالقرآن ، وقد طبع الكتاب عدة طبعات بتحقيق الشيخ الأستاذ أحمد صقر ، ثمّ انتقل التأليف كما يذكر الشيخ مساعد الطيار إلى أعمّ من الرد على الطاعنين والملحدّين ، «بل تعدّى التأليف إلى كل ما يعد مشكلا ويقصر فهمه على بعض العقول في أي مجال»¹⁹ « ومن أهم المصنفات في ذلك :

- توضيح المشكل في القرآن لسعد بن محمد بن صبيح أبو عثمان الغساني القيراطي النحوي (ت 300 هـ)²⁰ «

- كتاب المشكل في معاني القرآن لأبي بكر محمد بن القاسم المعروف بابن الأنباري (ت 328 هـ)²¹ «

- مشكلات القرآن: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت 437 هـ)²² «

- وضع البرهان في مشكلات القرآن لبيان الحق محمود بن أبي الحسن النيسابوري (ت 555 هـ) ، وقد طبع الكتاب بتحقيقين الأول بتحقيق صفوان داوودي في مجلدين ، والثاني بتحقيق سعاد بنت

¹⁸ - المصدر نفسه ، ص 23

¹⁹ - انظر: أنواع التصانيف المتعلقة بعلوم القرآن: ص 103

²⁰ - انظر: هدية العارفين ، إسماعيل باشا البغدادي ، دط ، بيروت ، لبنان ، دار إحياء التراث العربي ، دت ، ج 2 ، ص 228.

²¹ - انظر: إيضاح المكنون ، إسماعيل البغدادي ، تصحيح محمد شرف الدين بالتقيا - رفعت بيلكهاكليسي - ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، دت ، ج 2 ، ص 392

²² - انظر: كشف الظنون ، حاجي خليفة ، ج 1 ، ص 1965 .

صالح بن سعيد بابقيـ الفوائد في مشكل القرآن للإمام العز بن عبد السلام (ت 660 هـ) وقد اعتنى فيه الشيخ ببعض المشكلات اللغوية والبلاغية والنحوية وبعض المسائل الاعتقادية ، وقد طبع الكتاب بتحقيق سيد رضوان علي الندوي وأشرفت على طبعه والمطبعة العصرية بالكويت تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية

- كتاب المشكلين: - في مشكل الكتاب والسنة - لأبي بكر محمد بن عبد الله المعافري المعروف بابن العربي (ت هـ) «²³» .

- مشكلات التفسير : للعامه قطب الدين محمود الشيرازي (ت 710 هـ) «²⁴»

- فتح الرحمان بكشف ما يلتبس من القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري (ت 926 هـ) ، والكتاب مطبوع بتحقيق الدكتور محمد علي الصابوني .

- تيجان البيان في مشكلات القرآن لمحمد أمين بن خير الله الخطيب العمري (ت 1203 هـ) ، والكتاب مطبوع بتحقيق حسن مظفر الرزوي .

- مشكلات القرآن : لمحمد أنور شاه الكشميري (ت 1352 هـ) ، والكتاب مطبوع بتحقيق محمد بن يوسف البنوري .

- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب : للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ت 1392 هـ) ، والكتاب مطبوع عدة طبعات .

²³ - انظر: إيضاح المكنون ، إسماعيل البغدادي ، ج 2 ، 392 .

²⁴ - انظر: كشف الظنون ، حاجي خليفة ، ج 2 ، ص 1965 .

المبحث الثالث : التعريف بكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية (تفسير آيات أشكلت) ، وبيان أصناف المشكل فيه :

المطلب الأول : التعريف بكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية (تفسير آيات أشكلت)

قد أشار الكثير من أصحاب التراجم والسير إلى هذا الكتاب ولم يختلفوا في نسبته لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ومن ذلك ما ذكره الإمام ابن عبد الهادي عند إشارته لمصنفاته - رحمه الله - قائلا : « قال الشيخ أبو عبد الله بن رشيق وكان من أخص أصحاب شيخنا وأكثرهم كتابة لكلامه ، وحرصا على جمعه كتب الشيخ - رحمه الله - نقول السلف مجردة من الاستدلال عن جميع القرآن وكتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال ورأيت له سور وآيات يفسرها ويقول في بعضها كتبته للتذكر ، ونحو ذلك ثم لما حبس في آخر عمره كتبت له أن يكتب على جميع القرآن تفسيرا مرتبا على جميع السور ، فكتب يقول إنّ القرآن فيه ما هو بيّن بنفسه وفيه ما بيّنه المفسرون في غير كتاب ، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء فرمّا يطالع عليها الإنسان عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها ، ورمّا كتب المصنف الواحد في آية تفسيرا ، ويفسر غيرها بنظيره ، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل ، لأنّه أهم من غيره »²⁵ .

فهذا النص الذي نقله ابن عبد الهادي عن الحافظ ابن رشيق - رحمهما الله - يفهم منه أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية توخّى في هذا المصنف الجليل رفع الإشكال عن بعض الآي من التنزيل استعصى فهمها على طائفة من المحققين ، ولم يتبين فيها القول الصواب ، فأدلى فيها بقوله قاصدا بيانها ، وقد قام الباحث عبد العزيز بن محمد الخليفة بتحقيق الكتاب في رسالة علمية نال بها درجة الماجستير من كلية أصول الدين التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وقد تولت مكتبة الرشد طبع الكتاب ونشره سنة 1417 هـ - 1996 م .

²⁵ - انظر: العقود الدرية في مناقب ابن تيمية ، ط 1 ، تحقيق بو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني ، القاهرة ، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر ، 1422 هـ - 2002 م ، ص 25 .

نفعل بهم لم يكن قسمهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها صدقا ، بل قد يكون كذبا ، فهذا معنى الآية وهو ظاهر الكلام المعروف «²⁷»

«ومنها قوله تعالى : **چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ** **ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ** : وعبد معطوف على قوله : لعنه الله وغضب عليه فهو فعل ماض معطوف على ما قبله من الأفعال الماضية أي : من لعنه الله ومن غضب عليه ومن جعل منهم القردة والخنازير و من عبد الطاغوت ، لكن الأفعال المتقدمة الفاعل فيه اسم الله تعالى مظهرا ومضمرا ، وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت ، وهو الضمير في عبد ولم يعد سبحانه حرف من لأن هذه الأفعال كلها صفة لصنف واحد وهم اليهود «²⁹»

أقول: إن ما ذكره شيخ الإسلام وعدّه من قبيل المشكل هو اختلاف القراء في قراءة كلمة وعبد الطاغوت

فقد وردت فيها قراءتان متواترتان ، وهي قراءة من قرأ بفتح الباء من عبد ونصب التاء من الطاغوت ، وهذه قراءة ابن عامر ، وابن كثير ، وعاصم ، أبي عمرو بن العلاء البصري ، ونافع المدني ، والكسائي ، وأبوجعفر ، ويعقوب الحضرمي ، وخلف العاشر في اختياره ، والقراءة الثانية هي قراءة من قرأ بضم الباء من عبد وكسر التاء من الطاغوت وقد قرأ بذلك الإمام حمزة «³⁰»

و ما ذكره شيخ الإسلام في هذه الآية يعد اختيار للقراءة و توجيهها لها فهو أراد بيان أصح القراءة وجها في العربية ، وليس معناها نفي القراءة الأخرى لأنها متواترة ، وما كان طريقه الاستفاضة والنقل الصحيح لا يسوغ رده ، طالما ورد بالتواتر ، وإن كان هذا المتواتر بعيدا نوعا ما من ناحية العربية ، وقد وافقه في هذا القول أئمة القراءات وشيوخ المفسرين ، فقد ذكروا عين ما ذكره هو ، ومن المفسرين الذين تعرضوا له هذه الآية الإمام الطبري حيث قال : « فإذا كانت القراءة بأحد هذين الوجهين دون غيرهما من الأوجه التي هي أصح في العربية مخرجا منها ، فأولاهما بالصواب من القراءة قراءة من قرأ ذلك وعبد الطاغوت بمعنى وجعل منهم القردة والخنازير ومن عبد

²⁷ - انظر: تفسير آيات أشكلت ، ج 1 ، ص 136 . 137 .

²⁸ - سورة المائدة الآية 60

²⁹ - تفسير آيات أشكلت ، ج 1 ، ص 142 . 144

³⁰ - انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ، عبد الفتاح القاضي ، ط 5 ، القاهرة ، دار السلام ، ج 1 ، ص

الطاغوت لأنه ذكر أنّ ذلك في قراءة أبي بن كعب و ابن مسعود وجعل منهم القردة والخنازير
وعبد الطاغوت بمعنى والذين عبدوا الطاغوت ، ففي ذلك دليل واضح على صحة المعنى الذي
ذكرنا ، وأنّ النصب بالطاغوت أولى على ما وصفت في القراءة لإعمال عبد فيه ³¹».

في تفسير قوله تعالى: **چ چ چ ی ی ت ت ت ذ ذ ڈ ڈ ژ ژ ژ ر ر ك ك ك گ گ گ گ**
گ گ گ گ گ گ چ چ چ ³²»

قال: «ومنها قوله: **چ چ چ ی ی ت ت ت ذ ذ ڈ ڈ ژ ژ ژ ر ر ك ك ك گ گ گ گ**
گ گ گ گ گ گ چ چ چ ³³» ظنّ طائفة أنّ ما نافية ، وقالوا ما يدعون من دون الله شركاء في
الحقيقة ، بل هم غير شركاء ، وهذا خطأ ، ولكنّ ما هنا حرف استفهام ، والمعنى وأي شيء
يتبعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلاّ الظن ، وإن هم إلاّ يخرسون ، وشركاء مفعول يدعون
لا مفعول يتبع ، فإنّ المشركين يدعون من دون الله شركاء كما قد أخبر الله عنهم بذلك في غير
موضع فالشركاء موصوفون في القرآن بأنهم يدعون من دون الله ولم يوصفوا بأنهم يتبعون ، وإمّا
يتبع الأئمة الذين كانوا يدعون هذه الآلهة ، ولهذا قال بعد هذا « إن يتبعون إلاّ الظن » ولو أنّه
أراد ما اتبعوا شركاء في الحقيقة لقال إن يتبعون إلاّ من ليسوا شركاء ، بل هو استفهام بيّن به أنّ
المشركين الذين دعوا من دون الله شركاء ، ما اتبعوا إلاّ الظن ، ما اتبعوا علما ، فإنّ المشرك لا
يكون معه علم يطابق شركه ، إذ العلم لا يكون إلاّ مطابقا إلاّ للمعلوم ، والمشرك اعتقاده للشرك
اعتقادا غير مطابق ، وهو فيه ما يتبع إلاّ الظن ، وهو يحرص يحرص حرزا ، وهو كذب وافتراء كقوله
: **چ چ ن ڈ** ³⁴»

أقول : إنّ ما استشكله شيخ الإسلام في هذه الآية هو في بيان حقيقة ما الواردة في الآية هل هي
استفهامية أو نافية ، فالمشكل هنا حول معاني الحروف ، والحرف في اللغة العربية يحتمل عدة معان
ويكون له أغراض كثيرة ، ثمّ قد يكون الحرف في حدّ ذاته يحوي المعنيين معا وفقا لبعض التقديرات
التي يقررها اللغويون والنحويون ، والنحويون قرروا الأحوال التي تكون فيها ما متضمنة لمعنى النفي
وما المتضمنة لمعنى الشرط ، فالاستفهامية تكون من أوجه (ما اسمية) ، والاستفهامية تكون بمعنى

³¹ - جامع البيان في تأويل آيات القرآن ، ط 1 ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1420 هـ .

2000 م ، مج 6 ، ص 18

³² - سورة يونس : الآية 60

³³ - سورة يونس : الآية 60

³⁴ - سورة الذاريات : الآية 10 ، انظر : تفسير آيات أشكلت ، ج 1 ، ص 144 - 146.

أي شيء ولها صدر الكلام كالشرط ويسأل بها عن أعيان ما لا يعقل وأجناسه وصفاته ، وعن أجناس العقلاء وأنواع صفاتهم ، ومن أحكامها أنّ ألفها تحذف إذا جرّت مع بقاء الفتحة دليلاً عليها³⁵ ، وأما ما النافية فإنّها تكون من صور ما الحرفية ، و يذكر من أحكامها أنّها تكون في صدر الكلام و تدخل على الجملة الاسمية فتعمل فيها عمل ليس عند الحجازيين والتهاميين والنجديين بشروط معروفة ، وتدخل على الجملة الفعلية ولا تعمل شيئاً³⁶ وقد تحتمل ما معنى الاستفهام والنفي معا بناء على بعض التقديرات والتوجيهات ، فقد أورد الإمام ابن هشام في كتاب مغني اللبيب فصلاً للتدرب على إعراب ما ، وأورد بعض الآيات القرآنية وردت فيها ما ، وذكر جواز تضمينها لمعنى النفي والاستفهام معا في الآية الواحدة³⁷ ، وهذا يرجع إلى بعض التعليقات والتقديرات كما قلت .

وما ذكره شيخ الإسلام من كون ما «ما» التي في الآية استفهامية قد أجازها جماعة من المفسرين منهم الإمام ابن عطية حيث قال : «يصح أن تكون ما استفهاماً بمعنى التقرير وتوقيف نظر المخاطب ويعمل يدعون في قوله شركاء ، ويصح أن تكون نافية ويعمل يتبع في شركاء على معنى أنّهم لا يتبعون شركاء حقاً ويكون مفعول يدعون محذوفاً ، وفي هذا الوجه عندي تكلف³⁸» ، وفي المقابل ذهب جماعة من المفسرين إلى أنّ ما في الآية نافية ومن بينهم الإمام ابن الجوزي حيث قال : « أي ما يتبعون شركاء على الحقيقة لأنهم يعدونها شركاء لله شفعاء لهم وليست على ما يظنون³⁹» ، وذهب الإمام أبو حيان إلى رجحان كون ما التي في الآية نافية حيث قال : « والظاهر أنّ ما نافية ، وشركاء مفعول يتبع ، ومفعول يدعون محذوف لفهم المعنى تقديره آلهة أو شركاء أي أنّ الذين جعلوهم آلهة وأشركوهم مع الله في الربوبية ليسوا شركاء حقيقة ، إذ الشرك في الألوهية مستحيلة ، وإن كانوا قد أطلقوا عليهم اسم الشركاء ، وجوزوا أن تكون ما

³⁵ - انظر: البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، ج 4 ، ص 402 ، وانظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، ابن

هشام الأنصاري ، د ط ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، دار الطلائع ، ج 1 ، ص 312.

³⁶ - مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، ج 1 ، ص 316

³⁷ - المصدر نفسه : ج 1 ، ص 329 - 330

³⁸ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ط 1 ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، بيروت ، دار الكتب

العلمية ، 1413 هـ - 1993 م ، ج 3 ، ص 130

³⁹ - انظر: زاد المسير ، ط 1 ، تحقيق محمد بن عبد الرحمن عبد الله ، بيروت ، دار الفكر ، 1407 ، 1987 م ، ج

4 ، ص 40.

استفهاما في موضع نصب يتبع ، وشركاء منصوب يبدعون ، أي وأي شيء يتبع على تحقير المتبع
«...»⁴⁰

الفرع الثاني: المشكل في غريب اللغة :

الغريب من الكلام «هو ما كان بعيد المعنى لا يتناوله الفهم إلا عن معاناة وبعد فكر»⁴¹ ،
والغريب موجود في القرآن لنزوله بلغة العرب ، والعرب كانوا على درجة عالية من الفصاحة
والبلاغة ، لكنّ القرآن تجاوز فصاحتهم وتعدّاهما ، ومع ذلك كانوا يرجعون إلى شعر الجاهلية وكلام
الأوائل في تفسير بعض المعاني ، لكنّ مع اتّساع الفتوحات ودخول الأعاجم في الإسلام ابتعد
الناس تدريجيا عن اللغة ، فأصبحوا يستشكلون معاني بعض الألفاظ لم يستشكلها المصدر الأول
من الصحابة فقد كانت واضحة بيّنة عندهم

في قوله الله تعالى **چ ط ه** **چ**⁴² قال - رحمه الله - « حار فيها كثير من الناس ،
والصواب فيها التفسير المأثور عن السلف ، روى ابن أبي حاتم وغيره بالأسانيد الصحيحة عن ابن
أبي نجیح عن مجاهد «بأيكم المفتون» الشيطان ، في رواية قال هو إبليس ، وقال الحسن أيكم أولى
بالشيطان فقال : فهم أولى بالشيطان من النبي صلى الله عليه وسلم ، فبيّن الحسن المعنى المراد ،
وإن لم يتكلم على اللفظ كعادة السلف في اختصار الكلام مع البلاغة وفهم المعنى وقال الضحاک
: «بأيكم المفتون» أي المجنون ، فإنّ من كان به الشيطان ففيه جنون»⁴³ ، ثمّ نقل عن الإمام
ابن الجوزي أربعة أقوال عن السلف في تفسير الآية كلها موافقة للتفسير الذي ذكره عن الحسن
والضحاک إلاّ قولاً واحداً حكاه الماوردي بأنّ المفتون المعذب ، وهذا قد استبعده شيخ الإسلام
فقال ، ثمّ ذكر رمي المخالفين للأنبياء وأتباعهم بالجنون وقد صرح بذلك القرآن الكريم في كم
موضع ، ثمّ ذكر - رحمه الله - أنّ ممّا يؤيد هذا المعنى قراءة أبي بن كعب ، والجوني ، وابن أبي عبله
في أيكم المفتون والشيطان مفتون بلا ريب ، وبعدها بيّن خطأ من لم يفهموا هذا المعنى فقال : «
والذين لم يفهموا هذا قالوا الباء زائدة ، كما قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة ، وأبو بكر وكذلك نحاة
البصرة ، ثمّ ذكروا قولين : أحدهما أنّ المفتون مصدر كما زعموا أنّ المعقور ، والمعقود والمجلود يكون

⁴⁰ - انظر: البحر المحيط، د ط ، بيروت ، دار الفكر ، 1426 هـ ، ج 6 ، ص 84

⁴¹ - انظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1413 هـ ، ج
2 ، ص 1203.

⁴² - سورة القلم : الآيتان 5 - 6.

⁴³ - انظر: تفسير آيات أشكلت ، ج 1 ، ص 146 - 149

قال في تفسيره في قصة أو لتعودنّ في ملتنا قال : « ليس المراد عودهم في الكفر ، فإنّ الأنبياء لم يكونوا كفارا قط » ، وقال ابن عطية : « والعود أبدا إنّما هو إلى حالة قد كانت ، والرسل ما كانوا قط في ملة الكفر ، والمعنى أو لتعودنّ إلى سكوتكم عنّا كما كنتم قبل الرسالة ، وكونكم أغفالا » ، قال وذلك عند الكفار كون في ملتهم ، فصاحب هذا القول أقرّ العود على معناه المعروف ، ولكن جعله عودا إلى ترك الأمر والنهي ، ودعوتهم إلى الإيمان كما كانوا قبل أن يرسلوا ، وجعلوا هذا عودا في ملتهم ، عند أولئك الكفار وهذا يرد عليه أمران :

أحدهما أنّ هذا العود يكون للرسل خاصة فهم الذين أمروا ونهوا ودعواهم إلى اتّباعهم ، وقال ابن عطية أو لتعودنّ في ملتنا لتصيرنّ » ،

ثمّ ذكر شيخ الإسلام رأي الإمام ابن الجوزي ورأي الثعلبي والبغويووفقا فيه من قبلهما في الوجهين السابقين ، ثمّ ذكرا وجهها ثالثا ونصه كما ذكر شيخ الإسلام بقوله : « فقلا : واللفظ للبغوي لترجعنّ إلى ديننا الذي نحن عليه ، قال شعيب أو لو كنّا كارهين لذلك فتجبرونا عليه ، قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم ، يقول إلّا أن يكون قد سبق لنا في مشيئة الله أن نعود فيها فحينئذ يمضي قضاء الله فينا ، وينفذ حكمه علينا ، فإن قيل مامعنى قوله : « أو لتعودنّ في ملتنا » ولم يكن شعيب قط في ملتهم ، حتّى يصح قولهم ترجع إلى ملتنا ، قيل معناه ، أو لتدخلنّ في ملتنا ، فقال : ما يكون لنا أن ندخل فيها ، وقيل معناه إن صرنا في ملتكم ، ومعنى عاد صار ، وقيل أراد قوم شعيب ، لأنهم كانوا كفارا ، فأجاب شعيب عنهم »⁴⁷ .

بعدها قام شيخ الإسلام بنقد هذه الأقوال التي نقلها عن هؤلاء المفسرين ، وكيفية إجماعهم على تفسير الملة بالكفر لأنّ مدلول اللفظ يقتضيها ، لكنّه أشار إلى اختلافهم في تفسير حقيقة العود ، فخطأ قول ابن الجوزي والثعلبي والبغوي في تفسير العود بمعنى الابتداء ، وردّ ما احتجوا به من شواهد شعرية ، ورجح تفسير ابن عطية القائل بأنّ العود يقتضي الرجوع إلى حالة سابقة كان المرء عليها، ثمّ تطرق إلى مسألة رجوع نبي الله شعيب إلى ملة الكفر وكونه كان فيها أم لا ؟ ليقرّر أنّ فيها نزاعا مشهورا بين العلماء ، والمسألة خالية من أي دليل نقلي يمكن الركون إليه ، ومن حيث العقل فقد قرّر أنّ الذي عليه جماهير النظار من أهل السنة لا يمنعون وقوع ذلك ، ثمّ سرد اختلافات العلماء من مختلف الطوائف في إجازة وقوع الأنبياء في بعض الذنوب قبل و بعد البعثة، وهل كانوا معصومين قبل البعثة من الكفر والشرك أم لا ؟ ليقرّر في الأخير أنّ ليس ثمت ما يمنع أن يبعث الله بعض الرسل كانوا على ملة أقوامهم في الشرك والكفر حيث قال : « فلا يلزم إذا

⁴⁷ - انظر: تفسير آيات أشكلت ، ج 1 ، ص 171 .

كان نبي قبل النبوة معصوما من كبائر الاثم والفواحش صغيرها وكبيرها أن يكون كل نبي كذلك ، ولا يلزم إذا كان الله قد بعّض إليه شرك قومه قبل النبوة أن يكون كل نبي كذلك ، فما عرف من حال نبينا وفضائله لا تناقض ما روي من أخبار غيره إذ كان دون ذلك ، ولا يمنع كون ذلك بنينا ، ولكن الله فضل بعض النبيين على بعض ، كما فضّلهم في الشرائع والكتب والأمم، فهذا أصل ، يجب اعتباره...»⁴⁸ «

أقول : إنّ ما استشكله شيخ الإسلام في آية الأعراف هو خفاء حقيقة العود المذكور فيها ، ففي الآية نوع من الإشكال يوهم تناقضا ممّا هو مقرر في أصول الاعتقاد حول عصمة الأنبياء قبل البعثة من الكفر ، فإنّ الذي عليه جماهير العلماء استحالة وقوع الشرك والكفر منهم قبل بعثتهم ، فلمولى جلّ وعلا لا يبعث إلّا من كان كاملا في جميع النواحي ، وممّا عرف كذلك أنّ الأنبياء حباهم الله تعالى بفضيلة وعقل يمنعهم من مجارة أقوامهم على ما هم عليه من الشرك بالله تعالى ، وعبادة الأوثان كما هو حال نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد قام شيخ الإسلام ببسط أقوال المفسرين في المسألة ورجح البعض منها وضعف البعض الآخر منها ، ثمّ قرّر في الأخير جواز بعث الله لبعض الأنبياء كانوا من قبل على ملة أقوامهم فهو يجوز هذا من ناحية العقل ، لكنّ الدليل النقلى على ذلك لا يوجد كما أكد هو ، فالشيخ أخذ بظاهر الآية وفسّر العود على حقيقته ، وهو الرجوع إلى شيء قد كان ، وبذلك يتفق مع ابن عطية تفسير هذا المعنى ، لكنّه يخالفه في تأويله فابن عطية عدّ العود بمعنى السكوت عن الإنكار عليهم ، بينما شيخ الإسلام جوز من ناحية العقل وقوع نبي الله شعيبا في ملة الكفر .

الفرع الرابع: المشكل في التخصيص والتعميم

علم أصول الفقه آلة من الآليات التي يجب على المفسّر أن يلمّ بها حتّى يتسنى له استنباط الأحكام الشرعية من النصوص القرآنية ، وتحليل نصوص القرآن وتراكيبه ، فغير حري لمن تصدّر لتفسير كلام الباري تعالى أن لا يكون له نظر سابق وباع شاسع بعلم أصول الفقه ، وقد أدرك المفسرون ضرورته للمفسر ، فحفظت عنهم أقوال دوّنها يراعهم ينوهون فيها بأهميته ، ومن جملة ذلك ما قاله الإمام ابن جزى - رحمه الله - «وأما أصول الفقه فإنّها من أدوات تفسير القرآن على أنّ كثيرا من المفسرين لم يشتغلوا بها ، وإنّما لنعم العون على فهم المعاني ، وترجيح الأقوال وما أحوج المفسّر إلى معرفة النص ، والظاهر والمحمل والميّن ، والعام والخاص والمطلق والمقيد ، وفحوى

⁴⁸ - انظر: تفسير آيات أشكلت ، ج 1 ، ص 230 - 231.

الخطاب ولحن الخطاب ، ودليل الخطاب ، وشروط النسخ ووجوه التعارض ، وأسباب الخلاف وغير ذلك من علم أصول الفقه»⁴⁹ .

وقال الإمام الرّكشي : - رحمه الله - «ولا بدّ من معرفة أصول الفقه ، فإنّه من أعظم الطرق في استثمار الأحكام....»⁵⁰ ،

وشيخ الإسلام في كتابه تفسير آيات أشكلت ذكر بعض الآيات التي اضطربت أقوال العلماء فيها وأشكلت عليهم فهم معانيها بسبب عدم تحريرهم لبعض المسائل الأصولية المتوقف عليها فهم آي القرآن ، ومن ذلك :

في قوله تعالى: **بِذُرِّيَّتِهِ لَبَسَ السَّيِّئَاتُ لَأَبْلَغَ السَّبِيلِ ذُرِّيَّتَهُ أُخْتَبِرُوا وَلِأَبْلِغَ فِيكُمْ وَاعظَمَ لَبْسَهُ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴿٥١﴾

قال - رحمه الله - بعد بيانه للمعنى العام لها «... ولكن من الناس من لم يفهم هذه الآية ، فقالوا فيها أقوالا ضعيفة ، وأصل معرفة معناها أنّ قوله : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ» هل هو مختص بمن كان موجودا بعد مبعثه كآيات الأمر والنهي التي بعث بها ، فإنّه عليه وسلم ، أو هو مختص بمن كان موجودا بعد مبعثه كآيات الأمر والنهي التي بعث بها ، فإنّه يؤمر وينهى على لسانه من بعث إليهم ، وهم الذين بلغتهم رسالته من حين بعث ، وإلى يوم القيامة ، كما قال : «لأنذركم به ومن بلغ» ، فكل من بلغه القرآن فقد أنذره به الرسول ، والإنذار به هو الإخبار بالعذاب لمن قامت عليه الحجة برسالته فلم يؤمن به . فظنّ بعض الناس أنّ الذين أخبر عنه في الآية بالنجاة والسعادة ليسوا إلاّ ممّن بعث محمد إليهم ، لم يخبر فيها بحال من كان موجودا قبل مبعثه ، وغلطوا فيها في الفهم ، ثمّ افترقوا على أقوال متناقضة تخالف لفظ الآية ومعناها ، والصواب هو القول الآخر ، وأنّ الآية عامة تتناول من اتصف بما ذكر فيها قبل مبعث الرسول ، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية ويعرف به معناها من غير تناقض ، ويعرف به قدرها...» ثمّ ذكر الأدلة الدالة على ذلك والمرجحة لهذا المعنى .

في قوله تعالى: **بِذُرِّيَّتِهِ لَبَسَ السَّيِّئَاتُ لَأَبْلَغَ السَّبِيلِ ذُرِّيَّتَهُ أُخْتَبِرُوا وَلِأَبْلِغَ فِيكُمْ وَاعظَمَ لَبْسَهُ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴿٥٢﴾

⁴⁹ - انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ، ط 1 ، تحقيق عبد الرزاق مهدي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، 1425 هـ

- 2004 ، ج 1 ، ص 15

⁵⁰ - انظر: البرهان في علوم القرآن ، ج 2 ، ص 6

⁵¹ - سورة البقرة : الآية 62

ذكر شيخ الإسلام - رحمه الله - الفرق بين هذه الآيات وآية النساء التي يقول فيها جلّ وعلا «
 إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»⁶¹ فقد أحلّط القول فيهما كثير
 من الطوائف ، فأشار إلى أنّ آية الزمر تكون في حق التائبين من الذنوب ، وأنّ آية النساء في غير
 التائبين وردّ على المعتزلة القائلين بأنّها في حق التائبين ، ليشير بعدها أنّ آية النساء فيها تقييد
 وتخصيص ، فالله تعالى خصّ فيها الشرك بأنّه لا يغفره ، وما عداه لم يجزم بمغفرته ، بل قيّده
 بمشيتته ، وآية الزمر فيها تعميم وإطلاق بغفران كل جنس الذنوب حتّى الشرك لمن تاب منه ولم
 يمت وهو مشرك ، قال - رحمه الله - « فهذا يقتضي أنّ هذه الآية ليست على ظاهرها ، بل المراد
 أنّ الله يغفر الذنوب جميعا ، أي ذلك ممّا قد يفعله ، أو أنّه يغفر لكل تائب ، لكن يقال : فلم
 جاء بصيغة الجزم والاطلاق في موضع التردد والتقييد ؟ قيل : بل الآية على مقتضاها ، فإنّ الله
 أخبر أنّه يغفر جميع الذنوب ، ولم يذكر أنّه يغفر لكل مذنب ، بل قد ذكر في غير موضع أنّه لا
 يغفر لمن مات كافرا فقال : « إنّ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثمّ ما تواراهم كفار فلن يغفر
 الله لهم »⁶² وقال في حق المنافقين « سواء استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم
 »⁶³ لكن هذا اللفظ العام في الذنوب هو مطلق في المذنبين ، لم يتعرض لمذنب بنفي ولا
 إثبات ، لكن يجوز أن يكون مغفورا له ، ويجوز أن لا يكون مغفورا له ، إن أتى بما يوجب المغفرة
 غفر له ، وإن أصرّ على ما يناقضها لم يغفر له ، وأما جنس الذنب فإنّ الله يغفره في الجملة ،
 سواء كان كفرا أو شركا أو غيرهما لمن تاب منها وليس في الوجود ذنب لا يغفره الرب تعالى بحال
 بل ما من ذنب إلاّ والله يغفره بالجملة...»⁶⁴

الفرع السادس: المشكل في موهم تعارض بعض الآيات مع الأحاديث النبوية

قد تتعارض بعض الأدلة الشرعية مع بعضها البعض فيوهم ذلك تناقضا عند البعض فيلجأ
 العلماء عند ذلك لدفع التعارض والتناقض بإعمال المسالك المعلومة في الترجيح عند تعارض الأدلة
 ، إمّا بالجمع بين الدليلين ، أو بإثبات الدليل المتأخر عن المتقدم فيعمل بالنسخ ، أو بالترجيح
 ببعض المرجحات المذكورة في كتب الأصول ، فقد يقع في بعض الأحاديث النبوية نوعا من
 التعارض في الظاهر فيعمد العلماء إلى الجمع بينهما ، ولذا صنفوا كتبها في مختلف الحديث ، وقد

⁶¹ - سورة النساء : الآية

⁶² - سورة محمد : الآية 34

⁶³ - سورة المنافقين : الآية 6

⁶⁴ - انظر: تفسير آيات أشكلت ، ج 1 ، ص 305 - 306

للإنسان إلا ما سعى، فظنوا أنّ المراد أنّ الانسان لا ينتفع إلاّ بسعيه فقط ، فإذا قيل ليس لزيد مال إلاّ كذا ، ولا يملك إلاّ كذا لم يكن ذلك نفياً ، فإنّ انتفاع الانسان بإحسان غيره إليه ، وبإحسان الله إبتداءً إليه كثير في الدنيا والاخرة ، من المعلوم بالتواتر أنّ الميت ينتفع بصلاة المسلمين عليه ، وبدعائهم وبشفاعة الرسول ، والحي ينتفع أيضاً بالدعاء وبالصدقة ، وغير ذلك ممّا جاءت به الأحاديث الصحيحة ، وأجمع السلف على أكثرها وليس هذا مناقضاً للآية ولا مخصصاً لعمومها ولا مختصة بشرع من قبلنا»⁶⁹.

خاتمة :

من خلال هذه الدراسة التي أوردتها ، والتحليل الذي قمت به لكتاب الإمام ابن تيمية « تفسير آيات أشكلت » يمكن استخلاص واستنتاج جملة من النتائج :

1 — ضرورة الإمام بعلم المشكل من القرآن الكريم ، والاضطلاع به ، لما له من أثر كبير في دفع كثير ممّا يوهم تعارضاً وتناقضاً بين آيات القرآن الكريم .

2 — وقوع الاستشكال وظهوره في القرون الأولى — عصر الصحابة والتابعين — ممّا يؤكد قدمه وأصالته ، وحرص الأوائل من الصحابة على رفع كثير من الإشكالات العالقة بأذهانهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وسؤلات التابعين لكبار الصحابة .

3 — اندراج استشكالات الرعيّل الأول من الصحابة والتابعين ، تحت قضايا أصولية متعلقة بالتخصيص والتعميم أو التقييد والاطلاق ، أو قضايا لغوية متعلقة بغموض بعض المعاني ، وخفاء بعض مدلولات الألفاظ .

4 — تخصيص الإمام ابن تيمية كتابه (تفسير آيات أشكلت) لرفع كثير من الإشكالات حول بعض الآيات استعصى فهمها على كثير من العلماء ، ولم يحررّ فيها الرأي الصواب ، فقصد بيان ما أشكل منها بالدليل الصحيح .

5 — توسع مصطلح المشكل ومدلوله عند الإمام ابن تيمية ليشمل كلّ ما استعصى فهمه ، وقصر إدراكه على العقول في جميع مجالات العلوم .

6 — انحصار أصناف المشكل عنده في المشكل النحوي ، والغريب ، وخفاء معاني الألفاظ ومدلولاتها ، والتخصيص والتعميم ، والتقييد والإطلاق ، وموهم التعارض .

⁶⁹ - المصدر نفسه : ج 1 ، ص 456 - 458.

7 — حرصه في دفع هذه الإشكالات على اتباع الأصول والقواعد والمعروفة في الترجيح من انتهاجه للترجيح بالقواعد اللغوية ، وكذلك حرصه على اتباع طرق التفسير بالمأثور وترجيحه على الآراء الأخرى .

قائمة المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم ، د ط ، مجمع الملك فهد ، المملكة العربية السعودية ، دت .
- البحر المحيط في تفسير القرآن : أبي حيان الأندلسي ، د ط ، بيروت ، دار الفكر ، 1426 هـ .
- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة : عبد الفتاح القاضي ، ط 5 ، القاهرة ، دار السلام ، 1432 هـ - 2011 م .
- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي ، ط 1 ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، دار المعرفة ، دت .
- التسهيل لعلوم التنزيل : محمد أحمد بن جزى الكلبي ، ط 1 ، تحقيق عبد الرزاق مهدي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، 1425 هـ - 2004 م .
- التعريف على مهمات التعريف : عبد الرؤوف المناوي ، ط 1 ، القاهرة ، عالم الكتاب ، 1410 هـ - 1990 م .
- التعريفات : الجرجاني ، ط 3 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1408 هـ - 1988 م .
- الجامع المسند من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم وأيامه : محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري ، ط 3 ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، بيروت ، دار ابن كثير ، 1407 هـ - 1987 م .

- العقود الدرية في مناقب ابن تيمية : ابن عبد الهادي ، ط 1 ، تحقيق أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني ، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر ، 1422 هـ – 2002 م .
- الفهرست : محمد بن إسحاق أبو الفرج ابن النديم : د ط ، بيروت ، دار المعرفة ، د ت .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، ط 1 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1413 هـ – 1993 م .
- أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن : مساعد الطيار ، ط 2 ، السعودية ، دار ابن الجوزي ، 1423 هـ .
- ايضاح المكنون : إسماعيل البغدادي ، تصحيح محمد شرف بالتقيا - رفعت بيلكهالكليسي ، بيروت - دار إحياء التراث العربي ، د ت .
- تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، ط 3 ، تحقيق عطية ضقر ، السعودية - المكتبة العلمية - ، 1401 هـ – 1981 م .
- تفسير آيات أشكلت : أحمد بن عبد الحلليم ابن تيمية ، ط 1 ، تحقيق عبد العزيز بن محمد الخليفة ، السعودية - مكتبة الرشد ، 1417 هـ – 1996 م .
- جامع البيان في تأويل آي القرآن : محمد بن جرير الطبري ، ط 1 ، تحقيق أحمد محمد شاکر ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1420 هـ – 2000 .
- جمهرة اللغة : ابن دريد ، ط 1 ، تحقيق رمزي منير بعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1987 م .
- لسان العرب : ابن منظور ، د ط ، بيروت ، دار المعارف ، د ت .
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب : أبي محمد جمال الدين ابن هشام الأنصاري ، د ط ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، مصر دار الطلائع ، 2009 م .
- ملا التأويل : أبو جعفر ابن الزبير الغرناطي ط 1 ، تحقيق سعيد الفلاح ، بيروت ، دار الغراب الاسلامي ، 1403 هـ – 1983 م
- هدية العارفين : إسماعيل باشا البغدادي ، د ط ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د ت .

